ـ ٤ ـ

الشرق(١)

كانت المرة الأولى التى تحتك فيها جماهير الصليبيين بالشرق ابان الحملة الأولى فى مكان ما بين البلقان وايطاليا · وكان الشرق فى هذه المرة مسيحيا · فالشرق المسيحى ، الذى كان جـزءا من الامبراطورية الرومانية القديمة ، كان هو الامبراطورية البيزنطية · وكان الطريق المار بالبلقان والقسطنطينية وبعض مناطق آسيا الصغرى بمثابة البوابة التى تؤدى الى الشرق بأسره · فها هو العالم الاسلامى الحصين على مقربة من أسوار العاصمة البيزنطية · ومن هذا المكان كان العالم الاسـلامى يمتد باتجاه الشرق على اتسـاع رقعة تضم العراق وسـوريا والأراضى المقدسة حتى الهند فى الشرق ، ومصر وشمال افريقيا فى الغرب ·

ولم تكن هاتان الواجهتان الشرقيتان ، الاسلامية منهما والمسيحية ، أرضا تدخل فى الخريطة التى يعرفها الرجل الغربى ، سواء كان انجليزيا أو فرنسيا أو ألمانيا · كانت صورة الشرق الخرافى الغامض العظيم فى مخيلة الغربى تتألف من عناصر متنوعة تجمـع ما بين اللغـات غير المسيحية التى يتحـدث بهـا مسيحيو الشرق أى السريانية واليونانية والعربية ، الى جانب مدن الشرق العريقة فى شهرتها والأديرة والكنائس العظيمة ، عن ذلك الأدب غير اللاتينى الذى يلقى الحفادة والاحتفال ، ومن ملامح هـذه الصـورة أيضـا تلك الثيـاب الفخمة التى كان

وقد رأينا ترجمته على هذا النحو لكى يلائم القارىء العربى ·

(١) عنوان هذا الفصل كما كتبه المؤلف هو The Levant ، (المترجمان)

الاكليروس الشرقى يتميز بها والتى تليق بفدية الأمراء ، والثياب الموشاة بخيوط الذهب والفضـــة التى يرتديها رجال الدولة والجنود · هـــذه العناصر جميعها خلقت فى مخيلة الرجل الغربى صورة أقرب الى صورة الجنة الأرضية · ولم يكن الشرق غريبا تماما على الايطاليين والنورمان فى جنوب ايطاليا ، فقد كان الايطاليون يتبادلون التجـــارة مع كل من الشرق الاسلامى والقسطنطينية · أما النورمان فقد تعرفوا على الشرق من خـــلال الغزوات التى شنوها على الأمـــلاك البيزنطية قبيل الحروب الصليبية · فضلا عن أن مدينة البندقية التى تطغو فوق جداولها وقناواتها العديدة كانت مدينة شرقية السمات على الرغم من الأعلام المسيحية التى كانت ترفرف فوقها ، كمـــا كانت هى المنفذ الذى يدلف منه الغرب الى الشرق · فضلا عن انها كانت نقطة التفتيش الأوربية قبل الولوج الى عالم الشرق الغامض الساحر ·

وعلى مدى قرنين من الزمان ، عاش الغربيون تحت سماء الشرق يحيط بهم هـــذا الشرق وأبناؤه ، من الارستقراطية العربية والفارسية ، والبدو الرحـــل الذين كانوا يجوبون الآفاق فيما بين الفرات والنيـــل ، والقادة الأتراك وحامياتهم ، والدروز ، وطائفة الحشاشين الرهيبـــة ، فضلا عن فلاحى سوريا وفلسطين ووادى النيل · وكان الجميع يخضعون لاحدى سلطتين ، اما الخليفة العباسى السنى فى بغداد ، واما الخليفة الشيعى الفاطمى فى القاهرة · كذلك كان هنـــاك المسيحيون الشرقيون الذين كان بعض أبناء الغرب المسيحى قد توجهوا صوب الشرق لانقاذهم من النير الاســـلامى ، الا أن الود والتفاهم بين الجانبين ظل مفقودا · فقـــد كان الامبراطور البيزنطى القابع على ضـــفاف البسفور هو حاكم المسيحيين الشرقيين · وحين صافحت عيون الغرب قصـــور الامبراطور وتيجانه التى تزهو بما يرصعها من جواهر ولآلىء ، والملابس المزركشـــة باللآلىء وخيوط الذهب التى يرتديها رجال الدولة ورجال الجيش الغريب

المؤلف من اليونانيين ، والسلاف ، والفيكنج فضلا عن الأتراك العاملين في جهاز الشرطة ... حين حدث هذا وقع الغربيون في شباك الحيرة والتخبط . وفي الشرق أيضا قامت كنيسة الروم الارثوذكس وبطاركتها الذين أصروا على عدم الاعتراف بشرعية السلطة البابوية في روما ، وظلوا يفاخرون بتراث يمتد على مدى ألف عام ، زاعمين أن هذا التراث أكثر أصالة من تراث الغرب المسيحي . وقد استقر بطاركة هذه الكنيسة وأساقفتها ، لا في داخل حدود الامبراطورية المسيحية فحسب وانما أيضا الأحوال . وكان من الصعب على الرجل الغربي ان يفهم هذا الموقف في بلاد الاسلام التي لم تكتفي بقبولهم فقط ، وانما اكرمتهم في غالب الغريب . ولكن اصرار البيزنطيين على العمل المستقل في البلاد المحررة حديثا كان يجلب له الضيق والضجر لكون هذه البلاد تحت سيطرة المسيحيين اللاتين .

وفي الشرق أيضا كانت ثمة ممالك مسيحية أخرى ، وان كانت يدين بالارثوذكسية ولكن بعد الغربي عن موطنه كان يجعله أكثر لينا ، وربما كان يغمره شعور بالرضا والفخر حين يعلم بوجودها ، ففي أقصى الشمال وعند جبال القوقاز كانت توجد مملكة جورجيا المسيحية التي لعب ملكها وأمراؤها وجيشها دورا حيويا في سياسية آسيا الصغرى وكان لسكانها لغتهم وأبجديتهم الخاصة بهم ، كما كانت تربطهم بالأراضي المقدسة علاقات قديمة . وكثيرا ماتوجهت سفاراتهم وقساوستهم الى بلاط المسلمين وحكام المغول . كذلك كانت هناك مملكة أرمينيا الصغرى عند جبال طوروس وعلى طول سهل كليكيا الساحلي في آسيا الصغرى . وكان التأثير متبادل بين هذه المملكة وبين الفرنج نتيجة اتصالها المباشر بادارة انطاكية فيما بعد . وكان حكامها المعروفون ببسالتهم الحربية قد أقاموا نوعا من البلاط الاقليمي على النمط البيزنطي ، كما كان لمقاتليها شهرة ذائعة . وكثيرا ما قدمت أرمينيا للبلاط الاسلامي عددا من الوزراء

الذين اعتنقوا الاسلام · كما كان الأرمن يعملون كجنود مرتزقة فى خدمة حكام الشرق الاسلامى والمسيحى على السـواء · وكان الصليبيون قد ألفوا زى رجال الدين والرهبان الأرمن ، كما اعتادوا على صلبانهم ذات الفروع المشقوقة والنمط المعمارى الفريد الذى ميز محاربيهم ، فضلا عن اللاهويتين والمثالين الأرمن الذين كانت أعمارهم مألوفة فى الأوسـاط الصليبية ، وبعد جيلين من التعايش معا أدى الزواج المختلط بين الأرمن والصليبيين الى أن صـارت اللغة والعـادات الفرنسية عنصرا هاما وأساسيا فى حياة البلاط الأرمنى ·

وربما كانت هـذه الممالك المسيحية الحقيقية القائمـة على حدود العالم الاسلامى أقل فى شهرتها من الامبراطورية الخرافية التى قيل ان القديس يوحنا يحكمها اما فى الهنـد الغربية أو فى أثيوبيا التى لاتقل غرابة عن الهند ، والتى كانت شـعاع الأمل الذى يومض بين دياجير الخوف من التهديد الاسلامى باعتبارها خصما من خصـوم الاسـلام الكثيرين(٢) · ولكن الذى لم يكن خرافة حقا هو وجود مملكة مسيحية فى الحبشة كانت ترتبط دينيا ببطريرك الاسكندرية القبطى · وقد زادت هذه المملكة المسيحية برهبانها واديرتهم التى تذكرنا بأقـدم المؤسسات الديرية فى العالم المسيحى من عدم تجانس الشرق · وكان المسلمون فى مصر هم أقـرب الجيران اليهم ، ولكن أقبـاط مصر المسيحيين كانوا يرتبطون مع هذه المملكة ، التى ادعى حاكمها انهم ينحدرون من نسـل سليمان وملكة سبأ ، بأوثق الروابط والصلات ·

---

(٢) لم يكن هناك وجود حقيقى لهذه الامبراطورية التى شـاعت القصص عنها وعن حاكمها « برسترجون » فى العصور الوسطى ، وربما كان لقصور المعلومات الجرافية لدى الغرب آنذاك الفضل فى ترويج قصة هذه الامبراطورية الدهمية ، والخلط بينها وبين الحبشة المسيحية التى كانت تابعة للكنيسة المصرية منذ وقت مبكر ·

(المترجمان)

كان الشرق ، المسلم والمسيحى ، هو الاكتشاف الكبير بالنسبة للصليبيين · وكان من الطبيعى أن يعلم الغرب بوجود الشرق ، فقد زاره الحجاج والتجار والمرتزقة · ولكن بقدوم الصليبيين الى الشرق ، صار هذا الشرق جزءا لا يتجزأ من التصور الأوربى للعالم ، ومن تصورهم للعالم المسكون · وكان هذا تطورا رئيسيا فى الشعور الغربى الآخذ فى النمو فيما يتعلق بالبلدان والشعوب والثقافات الواقعة فيما وراء أوربا · وقد لعبت العناصر الشرقية المتعددة دورا فى حياة المستعمرات الصليبية فى الشرق · لقد تمت المواجهة مع الشرق الاسلامى على المستوى العسكرى ، كما تمت أيضا على مستوى العلاقات الاقتصادية ، لأن المسلمين كانوا يشكلون غالبية السكان فى المناطق التى وقعت تحت السيادة الصليبية ·

وكان بعض المسلمين القاطنين على سواحل الشرق من سلالة غزاة القرن السابع العرب الذين قضوا على السيادة البيزنطية على سوريا وفلسطين ومصر · أما غالبيتهم فكانوا من سلالة الأراميين والكنعانيين القدامى الذين خضعوا للتأثير الهللينى ثم الرومانى · وقد اعتنقوا المسيحية ثم تحولوا الى الاسلام · ويبدو أنه فى الشمال ، أى فى مقاطعات انطاكية والرها ، كان المسلمون أقل عددا منهم فى طرابلس وفى مملكة بيت المقدس الصليبية · ذلك أن قرب بيزنطة ، الى جانب حقيقة أنه قد اعقبت السيادة الاسلامية التى استمرت على هذه المناطق ثلاثة قرون ، فترة مائة عام تقريبا من السيادة البيزنطية التى استمرت حتى عشية الغزو الصليبى ··· كل هذا ربما يكون السبب وراء بقاء قطاعات كبيرة من المسيحيين ، أو ارتداد البعض عن الاسلام · أما فى الجنوب ، فى المملكة اللاتينية ، فقد كان الوضع مختلفا حيث كانت المنطقة قد عزلت عن بيزنطة ما يقرب من أربعة قرون · وكانت اللغة العربية هى اللسان

المشترك للسكان حتى فى المناطق التى لم تكن فيها للاسلام السيادة الكاملة · وعلى الرغم من اختلاف التوزيع السكانى ، فان العربية لم تكن لغة المسلمين فقط وأنما تحدثت بها جميع الطوائف المسيحية واليهود والسامرة ، وفى القرن الثامن ، أى فى عهد هارون الرشيد الذائع الصيت ، حلت العربية محل السريانية واليونانية اللتين اقتصر استخدامهما على الشئون الدينية ، وتخلفتا عن مكانيهما فى الجهاز الحكومى والشارع والسوق للغة العربية · وما حدث بالنسبة للغة حدث أيضا فى مجال الأزياء ، فقد كان أصحاب الأديان الأخرى يرتدون الثياب الشرقية نفسها الا اذا فرضت السلطات الشرعية عليهم غير ذلك ·

وكان المسلمون يعيشون فى المدن وفى الريف · ولكنهم فى الوقت الذى كانوا يشكلون فيه أقلية فى عواصم الصليبيين مثل الرها وانطاكية وطرابلس ، كان عددهم كبيرا فى المراكز العمرانية الصغيرة · وبعد الغزو الصليبى مباشرة والمذابح الشاملة وعمليات طرد السكان الأصليين فى المدن (غالبا ما كانوا من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين لم يفرق الصليبيون بينهم بسبب الزى المشترك) عاد المسلمون ثانية ليستقرا فى المدن · وكانت القدس هى الاستثناء الوحيد ، لأن الصليبيين أصدروا قرارا بأنه من الرجس أن يعيش فى المدينة التى شهدت آلام المسيح أولئك الذين دنسوا اسمه ·

وكان الريف كله مسلما ، فقد استمرت المجتمعات القروية الاسلامية تعمل تحت الحكم الصليبى · وظلت الخلايا الاجتماعية الأساسية كما هى ، على الرغم من أن الدولة الاسلامية فقدت سيادتها وسلطتها · وتركزت الحياة الدينية فى القرى حول المساجد الصغيرة ، واستمر القضاة والعلماء يباشرون خدماتهم الدينية وغير الدينية لأنه لم يكن ممكنا الاستغناء عنهم فى شئون الزواج والميراث · وقد نجت بعض المساجد ، حتى فى المدن الكبيرة من التحويل الى كنائس وظلت بأيدى المسلمين ·

فضلا عن أن الصليبيين اعترفوا بالسلطة التقليدية للشيوخ · ومنح الرئيس ، وهو شيخ القرية ، نوعا من السلطة وكان هو الذى يمثل القرية فى وتعامل مع الحاكم الصليبى · وفى حالة عدم وجود وكيل للخراج للاشراف على ضرائب الدخل ، كان الرئيس يتحمل هذه المسئولية بتفويض من الفرنج ·

ولم يكن لقاء الحاكم الصليبى بالمسلمين لقاء حاكم بمحكوم فحسب ، وانما كان لقاء على المستوى الاقتصادى ، لقاء المستغل بالمستغل · وربما يكون من الغريب أن هذا الجانب من العلاقة لم يكن عنيفا كما يفترض البعض ، والاقتباس التالى من ابن جبير الرحالة المسلم الذى رحل مع قافلة من دمشق الى عكا فى طريقه الى تونس يوضح ذلك · فمن بيت جن عند سفح جبل حرمون وبانياس عبر الحدود الى المملكة اللاتينية مارا خلال الحصن الصليبى فى تبنين وصل الى « ··· وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلهم مسلمون ، وهم مع الأفرنج على حال ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم فى غير ذلك · ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا · ومساكنهم بأيديهم ، وجميع أموالهم متروكة لهم · وكل ما بأيدى الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رساتيقهم كلها للمسلمين وهى الضياع والقرى · وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق · وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكى الصنف الاسلامى جور صنفه ، ويحمد سيرة ضنده وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس بعدله ··· » (٣)

---

(٣) النص من رحلة ابن جبير ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٩١ · (المترجمة)

أما فى المدن ، فلا شك أن المسلمين وجدوا أنفسهم فى موقف حرج كأقلية محتقرة وغير موثوق بها بالنسبة للفرنجة · ومع ذلك فان حساسية ابن جبير تجاه الخنازير التى كانت تتجول فى شوارع المدن المسيحية ، والصلبان التى كانت ترتفع فى كل ركن من أركانها لم تحل دون المسلمين فى دمشق وتجار الموصل من الابقاء على فروع متاجرهم فى الأسواق المسيحية الكبيرة على الشاطىء ·

وليس هناك شك فى أن الأرستقراطية المسلمة والمثقفين المسلمين ، وهم عادة سكان المدن ، قد اختفوا مع بداية الغزو الصليبى تاركين الفلاحين والمهنيين والتجار · الا أن الصليبين كانوا على معرفة جيدة بأبناء الطبقة العليا فى المجتمع الاسلامى · فقد كان الحكام المسلمون وأبناء الأسر الحاكمة يزورون المدن الفرنجية ، كما أن الاتقياء منهم كانوا يزورون المدينة المقدسة · كما عرف الفرنجة كثيرين من الجغرافيين والأطباء وغيرهم من أبناء الطبقة المثقفة · ومع مرور الوقت نشأت علاقة غريبة فى بابها بين البارونات الصليبيين والحكام المسلمين · ولم يقبل أى من الطرفين الآخر فيما يتعلق بالسلوك والثقافة · الا أن نوعا من الاحترام المتبادل ساد العلاقة بين الطرفين ، وهو احترام أشبه باحترام المقاتل لرفيق السلاح حتى وان كان من أعدائه ·

والى جانب السنة والشيعة عرف الرحالة الاوربيون التواقون للاستطلاع أن هناك فى جبل لبنان طائفة مسلمة تعرف باسم الدروز · وقد كان أبناء هذه الفرقة التى تأسست فى القرن الحادى عشر يعتقدون أن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله هو آخر تجسيد للألوهية ، وتوقعوا عودته ·

وكانت هناك طائفة أخرى تفوقهم شهرة هى طائفة الحشاشين المتطرفة والتى كان أفرادها يستخدمون أية وسيلة ، بما فى ذلك القتل ، لحماية مصالحهم · ومع مرور الوقت صاروا خطراً على المسيحيين

والمسلمين على السواء · وقد وصف وليم الصـــورى ، الذى كان يعيش فى الأراضى المقدسة وأصبح اكبر مؤرخيها ، طائفة الحشاشين الوصف التالى : « فى اقليم صور فى فينيقية ، وفى ابرشية طرطوس كانت تعيش جماعة من الناس يمتلكون عشرة حصـــون بالقرى الملحقة بها ، وكان عددهم كمـــا سمعنا ستين ألفا وربما أكثر · وعادة هـــذه الجمـــاعة أن يختاروا حاكمهم ، لا عن طريق الوراثة ، ولكن بامتياز الأحقية · وعندما يتم اختيار هذا الزعيم يطلقون عليه لقب « العجـــوز » ، أو « الشيخ » ولايقبلون لقبا آخر ولا يحول شىء دون خضوعهم له وطاعتهم العميـــاء لأوامره · وهم يعتبرون أن أى شىء يطلبه ممكن وغير مستحيل ، ويأخذون على عاتقهم تنفيذ اخطر المهـــام تنفيذا لأوامره · فاذا حدث ، مثلا ، أن كان هناك أمير جلب على نفسه كراهية هذه الجماعة أو عدم الثقة يضع الزعيم خنجرا فى يد واحـــد أو أكثر من أتباعه ، ويسرع هـــؤلاء لتنفيذ مهمتهم فى الحـــال ، بصـــرف النظر عن النتائج ، أو فرص النجـــاة ، ويعملون جاهدين طوال الوقت حتى تحين اللحظة المواتية لتنفيذ أمـــر الزعيم ··· » ·

كما يصفهم ماركو بولو بهذه الكلمات :

« ··· لم يكن مسموحا لأى انسان أن يدخل حديقة العجوز غير أولئك الذين يريدهم أن ينضموا الى جماعته · وكان هناك حصن منيع عند مدخل الحديقة ، وكان من القوة بحيث يكفى لمقاومة العالم بأسره ، ولم يكن ثمة طريق آخر للدخول · وقد كان هذا الرجل يحتفظ فى بلاطه بعـــدد من الشبان من أبنـــاء المنطقة فيما بين الثانية عشرة والعشرين يصلحون لحياة الجندية · وعندئذ يدخلهم الى حديقته على مرات ، فى كل مرة أربعة ، أو ستة ، أو عشرة · ويعطيهم شرابا سائلا يروحون بعده فى سبات عميق ، ثم يأمر بحملهم الى الحديقـــة حتى اذا ما استيقظوا وجدوا أنفسهم بين جنباتها · »

« وعندما يستيقظ هؤلاء ويجدون أنفسهم فى مكان جميل رائع يظنون أنهم فى الجنة حقا ، وتتولى النسوة والصبايا العذارى مداعبتهم ليدخلن المسرة على قلوبهم »

« وحين يريد العجوز قتل أمير ما ، يأمر واحدا من أولئك الشبان بقوله : اذهب واقتل فلانا ، وعندما تعود ستحملك ملائكتى الى الجنة ، أما اذا مت فسوف أرسل ملائكتى لتعيدك الى الجنة . »

وعدد قليل جدا من بلدان العالم هى تلك التى يتمركز فيها هذا العدد الكبير من الطوائف الدينية فى منطقة واحدة . وهذه الظاهرة الغريبة ، التى جعلت من الشرق معرضا للتاريخ الاسلامى والمسيحى واليهودى ، انما جاءت نتيجة لعدد من العوامل . فبالنسبة للمذاهب المسيحية كان السبب الرئيسى سياسيا ؛ ذلك أن المذاهب اللاهوتية التى اعتبرت من قبيل الهرطقة ، وتعرض اتباعها لسوط الاضطهاد بأيدى اتباع العقيدة الارثوذكسية الرسمية فى الامبراطورية البيزنطية ، قد وجدت لنفسها الملجأ والملاذ خارج حدودها . وكانت الجماعات القومية قد تبنت هذه المذاهب المخالفة كما لو كانت هي عقيدتها الأصلية ، الأمر الذى خلق الكنائس القومية فى جورجيا ، أرمينيا ، ومصر ، والحبشة . ولم يتبلور البعض الآخر فى اطارات قومية ، ولكنها كانت تمثل قطاعات كبيرة من السكان . بل كانت تمثل ، أحيانا ، مقاطعات بأسرها داخل حدود العالم الاسلامى الواسع بما ساده من تسامح ، كما حدث بالنسبة لليعاقبة ، والموارنة ، والنساطرة . ومع أن اختلاط الطوائف المسيحية عبر عن نفسه بشكل واضح فى العراق وسوريا وفلسطين ، فان للمدينة المقدسة الحق في أن تفخر بوجود اكبر مجموعة منها . فقد كانت جاذبية مهد الدين سببا كافيا لكل طائفة مسيحية لكى تتمسك بمكانها فى المدينة المقدسة . فقد كان السير فى شوارع القدس فى العصور الوسطى ، مع امعان النظر فى الكنائس اللاتينية الفاخرة ، والكنائس اليونانية

العديدة ، فضلا عن الكنائس الصغيرة المتواضعة لبقية الطوائف ، أشبه ما يكون بالمتجـــوال فى أرجـاء متحف غنى بكنوزه من متاحف التاريخ الكنسى ٠

وكانت الطائفة اليونانية هى أكبر الجماعات المسيحية ، كما كانت كنيســـة بيزنطـة هى أكبر الكنائس ٠ ومع أن قوتهـــا كانت تتركز فى المقاطعات الشمالية ولا سيما فى أنطاكية ٠ فانهـا كانت موجودة بشكل ما فى المملكة اللاتينية ٠ وقبل وصـــول الصليبيين كانت هى أغنى الكنائس الواقعة تحت الحكم الاسلامى وأكثرها تنظيما ٠ ولذا فانه مما يثير الحيرة أن الصـــليبيين ، الذين أقســـموا فى كليرمونت على تحرير المسيحيين البيزنطيين من الخطر الاســلامى ، قد تحولوا الى مناوئين ، بل وقطـاع طرق ٠ وقد أدى الى هذا التطور خليط غريب من الظروف ٠ فمن الناحية العقيدية ، فقد كان اللاتين يأملون فى أن البيزنطيين ليسوا هراطقة وانما هم منشقين عن روما بشكل مؤقت ٠ وبما أن طقوس الكنيســـة البيزنطية واكليروسها كانت صحيحة ، فقد كان من الممكن اغفال الخلافات البسيطة فى العقيدة والتغاضى عن الانحرافات فى الخدمة الكنسية فى سهولة ٠ وقد كان الامتثال اللاهوتى أو الموافقة هى العنصر الحاســم فى العلاقات بين اللاتين والبيزنطيين ٠ ذلك أن اللاتين لم يكونوا بقادرين على تصور موقف يكونون فيه تحت سيادة رجال الدين الشرقيين ، كما لم يكن ممكنا من الناحية اللاهوتية أن تقبل وجود سلطة دينية لاتينية شرقية موحدة ٠ ومن ثم حل بطريرك لاتينى محل البطريرك البيزنطى فى انطاكية ، وحدث الشىء نفسه فى القدس بعد الغزو الصليبى مباشرة ٠ وبعد أن خلع الصليبيون أساقفة الكنيسة الارثوذكسية البيزنطية ، أو أعلنوا خلو الكراسى الاســقفية ، عين الصليبيون أساقفتهم وطلبوا من رجال الكنيسة البيزنطية الاعتراف بالاساقفة اللاتين الجدد والخضوع لهم ٠ وكانت النتيجة أن وجدت حالة من التوتر الدائم بين البيزنطيين واللاتين ، فقد انسحب البطاركة الشرقيون

الى القسطنطينية بعد أن حرموا من كراسيهم ، وتوالى تعاقبهم فى العاصمة البيزنطية كأساقفة اسميين للبلاد التى قهرها الصليبيون · وبقيت الشرائح الدنيا من رجال الدين فى المقاطعات الصليبية ، وان اضطروا الى اعلان طاعتهم الأسمية للاتين ·

وكان تأسيس أى كنيسة لاتينية يقترن دائما باتلاف الكنائس البيزنطية وهو الأمر الذى وجد لنفسه التبرير الشرعى فى كونه التوارث المألوف من جانب اللاتين لأملاك البيزنطيين السابقة · وتجلت هذه العملية بوضوح فى الكنائس الكبرى وفى المدن أكثر من الريف · ومع ذلك لم يختف رجال الدين البيزنطيون الذين ظلوا يحتفظون بطقوسهم ومراسمهم الدينية المتمايزة فى كنيسة القيامة ، وفى كنيسة الميلاد فى بيت لحم · فضلا عن أنه فى الأوقات التى كانت فيها العلاقات السياسية أكثر ودية ، كما حدث فى منتصف القرن الثانى عشر ، عندما حدث تحالف صليبى بيزنطى فى عرض البحر ، رأى اللاتين أى يعينوا بطريركا شرقيا فى أسقفية انطاكية · وانفق الامبراطور البيزنطى بسخاء على تزيين الكنيسة فى بيت لحم حيث أعلنت الكتابات التى نقشت على جدران الكنيسة عن مولد الروح المسكونية الجديدة ·

وأيا ما كان وضع رجال الاكليروس الشرقيين فى الكنائس ، فقد ظلت أديرة الرهبان فى أيديهم ، وتم الحفاظ على تراث الرهبنة فى الأرض المقدسة · أما تراث الرهبنة المصرى ، الذى هو أقدم تراث رهبنة فى المسيحية ، فقد حفظته الأديرة القديمة فى صحراء يهوذا ، وعلى شواطىء الأردن · وظلت أديرة قرنطل ودير مار سابا ، ودير كوزيبا ، فضلا عن دير سانت كاترين فى سيناء ببهائه وعزلته ، ·· ظلت هذه الأديرة ملاذا للراهب الهارب من هذا العالم · وقد تغنى الأدب الكنسى القديم ، وتراتيل الكنيسة الشرقية بدوام الكنيسة الارثوذكسية ودوام المجد الالهى ·

وبينما كان عـــدد رجـــال الدين البيزنطيين كبيرا ، كان مجموع السكان الروم الارثوذكس كبيرا فى الشمال ، قليلا فى المملكة اللاتينية ، وكان أتباع الكنيسة الســـورية يكونون غالبية الســـكان المسيحيين فى المملكة · وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا ورثة الآشوريين القدماء كما كان بعض الصليبيين يعتقدون ، فقد كان الســـوريون من قدامى الســـكان الأصليين فى الأرض المقدســـة وحافظوا على هويتهم الدينية وســـلطة كنيستهم ورجالها تحت حكم الاسلام · وقد احتفظ لنا أحد أساقفة عكا فى القرن الثالث عشر بوصف واضح لأولئك المسيحيين الشرقيين ، على الرغم من أن حدة طبع هذا الأسقف قد أفسدت هذا الوصف :

« هناك قوم آخرون استقروا على هذه الأرض منذ القدم باســـم أرباب شتى وحملوا نير العبودية بالتوالى تحت حكم اليونان والرومان واللاتين والبرابرة والمسلمين والمسيحيين · وأولئك القوم عبيد فى كل مكان وأتباع يحتفظ بهم أسيادهم لأغراض الفلاحة ، وغيرها من الأعمال الخسيسة · وهم جميعا عازفون عن القتـــال ولا فائدة منهم فى المعركة كالنساء · ومع أن بعضهم يحملون القسى والسهام ، فانهم غير مسلحين، وعلى استعداد للهرب · هؤلاء القوم يعرفون باسم السوريان وهم غالبـــا غير أهـــل للثقة ، منافقون ، وثعالب ماكرة كاليونانيين · وهم كذابون خوانون ، يعشقون النجاح ويمكن رشوتهم بسهولة · وهم رجال يقولون ما لايعنون · ولا يأبهون للسرقة والنهب ، فمن أجل حفنة صغيرة من المـــال يتحولون الى جواسيس ينقلون أخبار المسيحيين الى المسلمين الذين تربوا بينهم وتكلموا لغتهم ، وغالبـــا ما حاكوا طرقهم الملتوية · لقد خالطوا الوثنيين وتعلموا أفعالهم وحبسوا زوجاتهم كما يفعل المسلمون · ولفوا زوجاتهم وبناتهم بالثياب حتى لايراهم أحد · ولم يحلقوا ذقونهم على نحو ما يفعل البيزنطيون والمسلمون وجميع الشرقيين ، وانما يعنون بها عناية كبيرة ويمجدون فيها على وجه الخصـــوص شرف الوجه وكرامة الانسان وعظمته معتقدين أن الذقن علامة على الرجولة » ·

« ويستخدم السوريان لغة المسلمين فى حديثهم العادى ، كما يستخدمون الخط العربى فى الأعمال والتجارة وكافة أنماط الكتابة الأخرى ، فيما عدا الكتاب المقدس وغيره من الكتب الدينية اذ يستخدمون فى كتابتها الأبجدية اليونانية · ويتبع السوريان قواعد البيزنطيين وعاداتهم فى مراسمهم الدينية وغيرها من الأمور الروحية ويطيعون البيزنطيين باعتبارهم سادة لهم · أما بالنسبة للأساقفة اللاتين الذين يقيمون فى أسقفياتهم ، فانهم يعلنون طاعتهم الاسمية لهم تظاهرا وخوفا من أسيادهم ، لأن لهم اساقفة بيزنطيين وهم لايخشون التحريم لأنهم يقولون أن اللاتين جميعا محرومون ، ومن ثم فانهم لا يستطيعون حرمان أى انسان » ·

وبينما كان البيزنطيون والسوريون المسيحيون يعتبرون منشقين فقط ، كانت بقية الكنائس المسيحية تعتبر بدعا دينية محضة فى رأى الصليبيين · هذه الكنائس هى الكنائس القومية فى جورجيا وأرمينيا ومصر (الأقباط) ، وأثيوبيا ، وجميعها تؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح · ومع ذلك ، فغالبا ما كانت هذه الكنائس الشرقية ببطاركتها وأساقفتها تستفيد من الغزو الصليبى · ذلك أن اليعاقبة (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) قد تعرضوا للاضطهاد من جانب البيزنطيين داخل حدود الامبراطورية البيزنطية ولم تكن علاقاتهم بالكنيسة البيزنطية أحسن حالا فى المناطق الواقعة تحت سيطرة المسلمين · فقد كانت المجادلات اليومية والخصومات والاتهامات العنيفة أمرا كثير الوقوع · وقد وضع الغزو الصليبى نهاية هذه الحرب الحقيرة · فالصليبيون لم يكونوا يبحثون فى عقائد الطوائف كما يخبرنا أحد البطاركة اليعاقبة ، فقد كان الجميع سواء فى نظر الفرنجة طالما أنهم ليسوا فرنجة · فضلا عن أن هذه الكنائس لم تكن عاملا من عوامل تشكيل سياسة المنطقة ، مثلما كان الحال مع الكنيسة البيزنطية ، الأمر الذى جعل صورتها مرضية فى عيون الغزاة ·

والصلة التى تربط الكنائس اليعقوبية صلة قديمة العهد · فقد كانت هذه الصلة تتأكد عدة مرات فى المراحل الأخيرة من السيادة البيزنطية ، أى خلال القرن السابع · وربما كان الفتح الاسلامى قد ساعد على تدهور هـــذه العلاقة الى حد ما · ولكن حقيقة أن أرمينيا وجورجيا كانتا من عوامل الحركة السياسية فى آسيا الصغرى جعل الأمور تسير لصالحهما · فقد كانت أعداد الأرمن كبيرة فى مقاطعة انطاكية ، وكانوا يمثلون غالبية السكان فى مقاطعـــة الرها ، كذلك قامت مستعمرات أرمنيـــة صغيرة فى المملكة اللاتينية التى عاش فى جنباتها أيضا بعض الأرمن · وقد قربهم الى الصليبيين شهرتهم كمقاتلين لايشق لهم غبار · وفى منتصف القرن الثانى عشر فكر الملك الأرمنى توروس Theros فى أن يرســـل ثـــلاثين ألفا من الأرمن للاستيطان فى الأرض المقدسة لكى يجعل المدينة مسيحية من ناحية عدد سكانها أيضا ·

أما البلاط الأرمنى ، الذى تبنى فى القـــرن الثالث عشر عادات الفرنسيين وتقاليدهم الى حد ما ، فقد كان خليطا يمزج الشرق بالغرب · وقد زار أحـــد الرهبان القادمين من جبـــل صهيون بالقدس بلاط أرمينيا الصغرى عند غروب شمس القـــرن الثالث عشر ، عندما كانت أرمينيا تابعة للمغول ، وقد ترك هـــذا الراهب الانطباع التالى عن زيارته للملك وللكاثوليكوس ، بطريرك أرمينيا ، اذ يقول :

« لقد عشت أســـابيع ثلاثة فى قصر ملك أرمينيا وكليكيا ، وكان هناك عـــدد قليل من المغـــول فى بلاطه · وكان بقية رجـــال البلاط من المسيحيين ويبلغ عددهم حوالى مائتين · وقد اعتدت على رؤيتهم وهم فى طريقهم الى الكنيســـة ، وهـــم يستمعون الى القداس ، وهـــم يركعون ويصلون فى خشوع · وبالاضافة الى هذا ، كان كل من يقابلنى أو يقابل صـــديقى كرمونا منهم يخلع قبعته ويحيينا فى احترام ، ويقفون عنـــد قدومنا » ·

« ويسمى كبير أســـاقفة الأرمن وأهـــل جورجيا بالكاثوليكوس (الجاثليق) ، وقد مكثت معه أربعة عشر يوما ، وكان معه الكثيرون من المطارنة والأساقفة ورؤساء الأديرة وغيرهم · وقد كان مثاليا فى طعامه وردائه وأسلوب حياته ، لدرجة أننى لم أر مثله أحـــدا ، ســـواء من يرتديها لم تكن تساوى خمسة شلنات استرلينية فى رأيى · ومع ذلك فقد العلمانيين أو رجال الدين · وأننى أعلن حقا أن جميع الملابس التى كان كان لديه عدد كبير من القلاع الحصينة ، وكان دخله كبيرا ، كمـا كان ثريا لدرجة تفوق التصـــور · وكان يرتدى برنســـا خشنا أحمر اللون مصنوعا من جلد الأغنام ، غاية فى القذارة ورثا الى أبعد الحدود ، باكمام واسعة ، وتحته قميص رمادى قديم ممزق ، وفوقه شال أســـود وعباءة خشنة سوداء اللون نسجت من صوف الغنم »

« والكاثوليكوس وســـائر الأســـاقفة جميعا من الرهبان · وفى الشرق كله لا يمكن لأى أحـد فى أية أمة أن يكون أســـقفا الا اذا كان راهبا · ويحظى الرهبان جميعا بالاحترام والتبجيل البالغ · أما رجال الدين والكهنة فليست لهم سلطة ، كما أنهم لايحظون باحترام العامة · وتقتصر واجباتهم على القيـام بالمراسيم الدينية ، وهم يحددون مواعيد الصلاة بالضرب على لوح من الخشب الســـميك أو أية قطعة أخرى من الخشب لأنهم لايمتلكون أجراسا · وعنـدما يتم اعلان موعد الصلاة فى الليل ، يتوجهون لأداء صلاة الصبح وهم ينادون الناس أثناء سيرهم فى الشـــوارع لكى يتوجهوا لأداء الصـــلاة · ويتميز الرهبان الأرمن والجورجيون عن العامة بثيابهم الكتانية البيضاء التى يلفونها حول رقابهم واكتافهم » ·

« ويتم اخصاء اللصوص الذين ارتكبوا حوادث السرقة الصغيرة وغيرهم من الأشرار الذين يرتكبون أصغر الجرائم ، وذلك حتى لا ينجبوا أبناء يقلدون فعال آبائهم الآثمة · وربما يكون هذا هو السبب فى وجود كثير

الغوانى على ما يبـدو لى · لأن هنـاك عـددا كبيرا من الخصيان ، وهم جميعا يخدمون السيدات من بنات طبقة النبلاء · وأعتقد أن ملكة أرمينيا تملك أكثر من أربعين خصيا ، وقد زرت قصرها · ولا يزورها أحد الا باذن خاص من الملك الذى يعين له أحد الخصيان بالاسم حتى يدخل به الى الملكة · وهكذا جرت العـــادة مع كل السيدات النبيلات ، الأرامل منهن والمتزوجات » ·

وأكبر كنيسة للأرمن فى الأرض المقدسة هى كاتدرائية سان جيمس فى الحى الأرمنى بالقدس · وقد أقيمت فى القرن السابع أو قبله ، ثم أعيد بناؤها ابان حكم الصليبيين فى حـــوالى منتصف القرن الثانى عشر · وظلت هذه الكنيسة تؤدى خدماتها للجماعة الأرمنية دونما انقطاع على مدى ثمانية قرون ، وحتى وقتنـــا الحالى · وفى الجـــزء الجنوبى من الكنيسة ممر ثلاثى مقنطر يؤدى الى ردهة حيث توجد بوابة جميلة فى فى شكل صليبى أسطورى تؤدى الى قاعة القداس ذات الصحون الثلاثة · وتتمثل الرموز التى تشير الى صلة الأرمن بكنيســة الرســل وبالمدينــة المقدســـة فى كرسى سان جيمس المذهب الموجود بالقرب من المذبح ، ورفاته المقدسة ، فضلا عن رأسه الموجودة فى احدى أبرشيات الشمال · وفى القرن الرابع عشر أعاد ملوك اسبانيا تزيين الكاتدرائية من الداخل تعبيرا عن اهتمامهم بالمقدس ، اذ كان جسد سان جيمس محلا للتقديس فى سانتياجو دى كومبو ستلا ·

وأهل جورجيا هـــم جيران الأرمن فى جبـــال القوقاز ، وصـــلتهم بالأرض المقدسة ترجع الى عصور قديمة · ففى نهاية القرن الخامس · تم بناء دير جورجانى فى الوادى المؤدى الى مدينـــة القدس ، ثم أعيد بنـــاؤه على يد الامبراطور جـــوستنيان فى القـــرن السادس · وظل هـــذا الدير فى حـــوزة الجورجيين خـــلال العهد الاســـلامى حاملا اســـم دير الصليب · وتقول اســـطورة قديمة أن الشجرة التى قطعت منها فروع

الصليب الحقيقى نمت فى موقع الدير · وربما تكون هذه الأسطورة قد قامت على أساس من القصـــة التى تقول أن الملكة زوجة داود الثانى David II The Restorer المتوفى سـنة ١١٢٥ قـــد أنشـــأت ديرا للراهبات لخـدمة السيدات الجورجيات فى مدينـة بيت المقدس وأرسلت الى المدينة المقدســة قطعة من الصليب المقدس ، وأرســل جزءا منه الى باريس برفقة راهب أفرنجى يدعى أنسلم · وتم الاحتفاظ بهذه القطعة فى كاتدرائية نوتردام حتى عشية الثورة الفرنسية·وقد أهدى جزء مما تبقى ، بعد تحطيم الصور الدينيـة والتمـاثيل المقـدسة ، الى نابليون ، ثم الى شارل العاشر ملك فرنسا فيما بعد ، ولا تزال بقاياه موجودة حتى الآن فى كاتدرائية نوتردام · وعلى الرغم من ضياع هذا الدير فى الصحراء ، وكونه غير معروف خارج البلاد ، فان هذا الدير الجورجانى أحرز مكانة خاصة فى قلوب أهل جورجيا البواسل · ففى بداية القرن الثالث عشر أرسلت الملكة تامارا المتوفية سنة ١٢١١ هدايا الى جمـاعة الجورجيين فى القـــدس مع رجـل يدعى شـــوتا روســتافلى Shota Rustaveli ظل فى الدير الى أن مات · وهناك نظم أعظم قصيدة قومية لجورجيا ، وهى قصيدة « الرجل الذى يرتدى جلد الفهد » · وجيلا بعد جيل كانت هذه القصيدة تدرس وتتلى فى قرى جورجيا ومدنهـــا · ومنذ سنوات قليلة مضت وافق الحظ بعثة علمية من جورجيا (جمهورية جورجيا السوفييتية حاليا) فتمكنت من الكشف عن رسومات ترجع فى تاريخها الى العصور الوسطى ، وتصور القديسين والحكام وشاعر جورجيا القومى ·

وكانت الكنيســة اليعقوبية احـدى الكنائس التى تؤمن بالطبيعة الواحـدة للمسيح ، وكان لها أتبـاع كثيرون فى كل المقاطعات الصليبية تقريبا · وقد سميت باليعقوبية نسبة الى مؤسسها يعقوب البراذعى · وعلى الرغم من أن هذه العقيدة لم تتبلور كعقيدة دولة أو جماعة قومية بعينهـا ، فان ذلك لم يمنع أتباعهـــا من أن يعتبروا أنفسهم « أمة » ·

وعددهم فى الشمال أكثر من عددهم فى الجنوب · وكان مقدسهم الكبير هو دير برسوم فى أرض المسلمين ، ومع ذلك فان بطريركهم كان يقيم فى أنطاكية ، وكانت علاقاته مع كنائس الطبيعة الواحدة علاقة ودية بشكل عام · وباعتبار اليعاقبة أشهر المناوئين للكنيسة البيزنطية فقد لقوا معاملة ودية الى حد ما من جانب الصليبيين ، مما مكنهم من الاحتفاظ بأديرتهم وكنائسهم فى المـــدن الرئيسية فى المملكة الصليبية · وكان دير مريم المجدلية الذى بنى فى نهاية القرن الحادى عشر بأيدى الأقباط المصريين هو نقطة ارتكازهم فى الأرض المقدسة ·

ومن بين الطوائف المسيحية الكثيرة التى وجدت فى الأرض المقدسة تحت الحكم الصليبى ، لم تكن هناك طائفة أقرب الى الحكام من الطائفة المارونية فقد كانت هذه الطائفة أشبه بقطعة من التاريخ ترسبت فى وديان لبنان وجباله ، وكان أفرادها يعتنقون احدى العقائد الكثيرة التى مزقت الكنيسة فى القرن السابع ، وقد أدانت الكنيسة هذه العقيدة بأعتبارها عقيدة توحيدية ، اذ كان المنشقون يعتقدون فى مشيئة واحـــدة للمسيح وهى المشيئة الالهية ، وقد وجد أتباعها لأنفسهم ملجأ فى خلوات لبنـــان بعيدا عن القسطنطينية · وقد تبنت هذه العقيدة جماعة قومية فى لبنان ، مثلما حدث مع كثير من المذاهب الأخرى · وبعد الفتح الاسلامى وفصل لبنان عن بيزنطة صارت هذه العقيدة هى عقيدة الفلاحين المسيحيين فى أرض فينيقيا القديمـــة · وفى سـنة ١١٨٤ تقبل المسيحيون اللبنانيون الخضوع لسيادة كرسى الأسقفية الرومانية · وكانت تلك حادثة هائلة فى تاريخ لبنان ان لم تكن فى التاريخ الكنسى بأسره · وعلى الرغم من فترات التباعد بين مسيحيى لبنان والغرب ، فقد ظل المسيحيون فى لبنان على اتصالهم بروما ، ومن ثم كانوا أكثر تعرضا للمؤثرات الأوربية من أية طائفة مسيحية أخرى فى الشرق وهو موقف لايزال قائما فى العصر الحاضر ·

لقد خضعت الأرض المقدسة لسيطرة كل من روما الوثنية وبيزنطة المسيحية والعرب المسلمين ، وفى كل عصر كان السكان الأصليون يعتنقون ديانة السلطة الحاكمة ، بيد أن جهود التحويل لم تؤت ثمارها مع السكان جميعا · فمع أن الوثنية اختفت تماما ، فقد ظلت المسيحية واليهودية كجزر منعزلة فى بحر الاسلام ·

ومن المستحيل معرفة عدد السكان اليهود فى الأرض المقدسة ابان العصر الصليبى ، وقد كان بعضهم ورثة مباشرين للسكان الأصليين ، كما انه من المستحيل معرفة عدد السكان اليهود الجدد فى المنطقة · وبشكل عام يبدو أن المجتمعات اليهودية الصغيرة فى الجليل ربما يرجعون بجذورهم الى عصر الهيكل الثانى الذى انتهى بتدمير الهيكل على يد تيتوس سنة ٧١ ميلادية ·

وكانت لليهودية طوائفها ، شأنها فى ذلك شأن الاسلام والمسيحية · فقد كان السامرة يتركزون حول نابلس ، ولم يهجروا أبدا جبل جزريم الذى يقدسونه كما كانت ذبيحة عيد الفصح السنوى ، ولا تزال ، رمزا عندهم لبقائهم واستمرارهم · وفى القرن الثامن رفضت طائفة القرائين التى أسسها داود بن عانان قوانين المشنا والتلمود ، ولم تؤمن سوى بالكتب المقدسة · وقد انتشرت هذه البدعة فى الشرق ، وسرعان ما أخذ القراءون والربانون فى تبادل الرسائل العنيفة دفاعا عن عقيدة كل منهما ·

ولم يكن أمل الخلاص والعودة قاصرا على الربانين فحسب ، فقد حدث فى القرن العاشر أن توجه أحد علماء القرائين بدعوة لمجتمعات القرائين يقول فيها :

« أيها الأخوة · لقد دمرت القدس وصارت مدينة سوداء منفية مهجورة وأنتم مستريحون تضطجعون فى أسرتكم ، وهى سكرى ، ليس

من نشوة الخمر وانما من الألم ، تصرخ تنادى أبناءها لجمع شمل اليتامى الذين يرتدون الخراب ، الصائمون المعذبون ، الذين انكمشت جلودهم على عظامهم · وتركوا أعمالهم ونسوا أسرهم ورحلوا عن أرض ميلادهم ، يعيشون هنا قوتهم الخبز الجاف ، عازفين عن اللحم والنبيذ ، مستمسكين بقانون الرب الذى يحرسون بواباته ويصعدون الى جبل الزيتون ويبكون » ·

« فلتعلموا أيها الأخوة أن القدس اليوم ملجأ كل انسان لاجىء ، ومأوى لجميع الحزانى ، وملاذا للفقير والمسكين ، يجتمع فيها عبيد الرب ، واحد من مدينة واثنان من أسرة ، على حين تبكى النسوة وتنوح باللغة المقدسة (العبرية) وبلغة فارس ، وبلغة اسماعيل (اللغة العربية) » ·

وقد عانى الجميع ، ربانية وقرائين وسامرة ، ابان الحكم الصليبى ، اذ أن أنباء اقتراب قوات الحملة الصليبية سبقت وصول الجيوش نفسها ، وقد تركت هذه الأنباء التى رويت عن المذابح اليهودية فى أوربا أسوأ الأثر فى النفوس · وخشيت جماعات كثيرة فى الشرق أن يحدث لها ما هو أكثر سواء مما حدث لاخوانهم فى الغرب · وحين دنت ساعة القتال انضم اليهود الربانون والقراءون والسامرة الى قوات المسلمين لكى يدافعوا عن مدنهم · وقد دفعوا ثمنا غاليا فى القدس وحيفا فى سبيل صد الغزاة(٤) · واختفى القراءون تماما ربما لأنهم كانوا

---

(٤) فى تصورنا أن المؤلف هنا يحاول اختلاق دور لليهود ابان الحروب الصليبية ، وهى محاولة لا تجد لها سندا من الواقع أو التاريخ · ويكفى أن نشير الى أن النظرية السياسية الاسلامية تمنح الجماعات الذمية (أهل الكتاب) حق العيش فى ديار الاسلام ، وحرية العقيدة =

يتمزكرون فى المدن · أما اليهود الذين كانوا يعيشون فى قرى الجليل ، والسامريون الذين كانوا يسكنون نابلس ، فقد نجوا من الغزو دون أن يمسهم أذى · ولم تتعرض اليهودية للانقراض فى موطنها التاريخى ، بل انها بدأت تزدهر بالفعل · وقد عامل الصليبيون اليهود ، معاملتهم لكل ما هو غير فرنجى ، أى أنهم اعتبروهم مواطنين من الدرجة الثانية ، وتركوهم يمارسون حياتهم وشعائرهم كما تعودوا · هذه النظرة خلقت مناخا مناسبا · فضلا عن أن امكانية الاتصال بأوربا على نحو متطور ساهم فى اعادة بناء الجماعات اليهودية · وفى القرن الثالث عشر تم احياء الحياء اليهودية فى الأرض المقدسة بدرجة كبيرة ·

كان التصرف الرسمى الوحيد ضد اليهود هو منعهم من سكنى بيت المقدس · ومع ذلك فان اليهود استوطنوها وعملوا كصباغين فى ظل الحكم الصليبى · وكان فتح صلاح الدين للمدينة سنة ١١٨٧ نقطة التحول فى تاريخ اليهود ، فقد طلب صلاح الدين من اليهود العودة الى المدينة المقدسة · وبعد سنوات قليلة كتب الشاعر اليهودى الاسبانى يهوذا الحريرى ، الذى زار القدس آنذاك ، يقول :

« وهكذا أمر (صلاح الدين) أن ينادى فى كل مدينة ، للعظيم والبسيط من الناس على حد سواء : اننى اتحدث من قلب القدس وأقول

والعمل والتنظيم الاجتماعى فى مقابل الجزية التى هى فى الواقع ضريبة دفاع يدفعها الذميون لقاء توطينهم فى دار الاسلام والدفاع عنهم · وهو ما يعنى أن العمل العسكرى ظل وقفا على المسلمين وربما يكون أفراد من اليهود قد اشتركوا فى القتال ، كما حدث من قبل بعض المسيحيين ، ولكن ذلك الموقف يظل موقفا فرديا لايعبر عن حقيقة تاريخية عامة ·

عن هذا الموضوع انظر · د· قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، دار المعارف ١٩٧٧ ·

ان أى انسان من نسل افرايم يرغب فى الاستيطان فى المدينة فله مطلق الحـــرية فى ذلك » · وسرعان ما تحولت الهجرة اليهودية الى القدس والارض المقدسة الى حركة عامة · وفى القرن الثالث عشر ترك مشاهير اليهـــود مثـــل يهييـــل Yehiel الباريسى ، وفهمنديا Nahmanides الاسبانى مواطنهم الأصلية لكى يستقروا فى الأراضى المقدسة · وازدهر المجتمع اليهودى فى القدس مرة ثانية ، مع أن التمركز الأكبر لليهود كان فى المدن الساحلية مثل صور وعكا · ومع ختام القرن الثالث عشر ، وعندما اقتربت المملكة الصليبية من نهايتها · تنبأ أحد تلاميذ نهمنديا بقرب قدوم المسيح المخلص ·